موسيقى

ستيفن سوندهايم

برحيل المؤلف الموسيقي، وكاتب كلمات الأغاني، ستيفن سوندهايم، يفقد المسرح الموسيقي أحد أبرز أعلامه. تجربة استطاعت أن تخلق توليفةً مميزة، بين الكلمة واللحن، لتغدو، من خلالها، الموسيقى لغةً، واللغة موسيقى. هنا، وقفة عند تجربة سوندهايم

الكلمات لا بد لها أن تُجلَس على النغمات بغية أن تظل واضحة (دوغلاس البينغر/Getty)

قبل أن تعود الأغنيات إلى الكواليس

علي موره لي

وهي على فراش الموت، أسرّت الأم لابنها، ستيفن، أن الإتيان به إلى هذا العالم، كان أسوأ فعلٍ أقدمت عليه في حياتها. بالنسبة إلى عشاقِ الميوزيكال، وعلى الأخص ذاك الذي اشتُهر به مسرح برودواي النيويوركي الشهير، وللذاكرة السمعية الأميركية على مدى التاريخ الحديث، فالرأي مختلف؛ إذ ما من مسرح غنائي أميركي يُذكر منذ خمسينيات القرن الماضي إلى الآن، من دون اسم ستيفن سوندهايم (Stephen Sondheim)، الذي رحل الأسبوع الماضي عن أحد وتسعين عاماً. المؤلف الموسيقي، وكاتب كلمات الأغاني الأنجح في التاريخ الحديث، والأكثر احتفاءً، وتقلّداً للجوائز والأوسمة.

بحسب وصف موسوعة البريتانيكا العالمية؛ فإن الميوزيكال، كجنس موسيقي ووسيط فني، هو إنتاجٌ مسرحي، له صبغة حسيّة وغرض ترفيهي. يتميّز ببساطة الحبكة، ويشتمل على الموسيقى والرقص، إضافة إلى الحوار. قد يصح ذلك غالباً في المضمون، أما الشكل، فبمؤهلات خارقة للعادة، ورؤى فنية بعيدة الأفق، كالتي شُهِدت لقامات فنية أميركية عالية، مثل سوندهايم، والمؤلف وقائد الأوركسترا ليونارد بيرنشتاين (1918-1990)؛ فإن إنتاج الميوزيكال لجهة التقنية الموسيقية في التلحين والتوزيع، ناهيك عن الشق المتعلق بالمسرح وتصميم المشاهد، قد بلغ حداً من البراعة والعمق، جعل منه، من الناحية الشكلية على الأقل، سيرورة تطورية لمسرح الأوبرا، خصوصاً تلك خفيفة الظل منها، التي ازدهرت في نهاية القرن التاسع عشر تحت اسم أوبريت، بفضل المؤلف الفرنسي الألماني جاك أوفنباخ.

> كتب كلمات «في مكان ما» من ميوزيكال «حكاية الحي الغربي»

في الأغنية المنفردة «في مكان ما» Somewhere، من ميوزيكال «حكاية الحي الغربي» Westside Story التي كتب لها الكلمات ستيفن سوندهايم ولحنها ليونارد بيرنشتاين، ثم عُرضت على مسرح برودواي سنة 1957، يُغني العاشقان لحبّهما المستعصي؛ إذ إن الصراع المُحتدم بين عصابات الحي المتنافسة، قد جعل الوصال بينهما من المحال. كان ذلك العمل الموسيقي الأبقى في الذاكرة الأميركية، بمثابة أول ظهور لسوندهايم على الخشبة النيويوركية الأشهر على مستوى المسرح الترفيهي، الغنائي منه والاستعراضي.

في المشهد الثاني من الفصل الثاني، وفي ملحمية عاطفية تُذكّر بخالدة شكسبير روميو وجولييت، تحلم ماريا بلقاء حبيبها توني، من دون أن تعلم أن الأخير قد قتل شقيقها للتو، أثناء نزال شبّ بين عصابتي الحي الرئيستين. ما إن تهرع الأخت المفجوعة إلى غرفتها تبكي أخاها، حتى يظهر حبيبها أمامها عبر النافذة. وبينما يقوم الاثنان معاً بصحبة طاقم من الراقصين بأداء المشهد، مكتفين بالإيماء الجسدي والرقص، يُسمع صوت المغنية مُحتجباً يركب الأثير من خلف الكواليس.

في كتابة الكلمات، مثال أخّاذ على قدرة سوندهايم الباهرة على الإمساك بزمام اللغة. من ناحية الشكل، القافية واحدة بثلاثة حروف على مدى الأغنية بكاملها.

لأجل التسخين الشعوري، يستخدم تقنية نظم تعتمد على مُفردات تُركّب تباعاً، وتبدأ بنفس الحرف. عوضاً عن أن كل مفردة بذاتها، اختيرت قبل كل شيء لتمتطي اللحن بسهولة وأناة، ما يجعلها تلتحم باللحن في علاقة عضوية تُمكن المُنتج النهائي من الصدم الشعوري.

أما من جهة المضمون، فيسعى الكاتب إلى الإيحاء بقدر الهرب المحتم على كل من البطلة والبطل، إن أرادا لحُبهما أن يُثمر ويستمر بعيداً عن الصراع المُستعر. فيُقدم إشارات لغوية تقود نحو موضوعة الملجأ والملاذ والعيش معاً، التي بدورها سترسم أحداث القصة. هكذا، ينأى سوندهايم بمضمون الأغنية عن سيرورة النص، يبتعد بها عن التحرير والتوصيف، ويكتفي بالموضوعة في إطارها الشمولي العام. لتكتسب الأغنية بهذا قيمة مستقلة بذاتها، منفصلة عن سردية المسرحية، فتعيش أبداً بين أسماع الناس.

إلا أن واقع الأمر حيال «في مكان ما»، يدلّ ليس على المقدرة الأدبية لدى سوندهايم فقط، وإنما على موهبته الموسيقية الفذة أيضاً. فخلافاً للمألوف، قد قام ليونارد بيرنشتاين بوضع لحن الأغنية قبل أن تُنظم لها الكلمات؛ إذ إن الأخير في تلك الفترة قد بدأ بصعود درجات الشهرة العالمية في مجالات مهنية عدة، وأخذت تنهال عليه العروض من كل حدب وصوب. لذا، كان بصدد كتابة عمليّ ميوزيكال بصورة متزامنة، ولم يمتلك الوقت الكافي إلا لاستدعاء أحد الألحان الجاهزة من جُعبته، ويُقدمها للأغنية، ما حدا بسوندهايم، المتحمس، إلى اقتناص فرصة الحضور في برودواي، بأن يتكفّل بصياغة الكلمات بحسب متطلبات اللحن.

وتلك مهمة مستحيلة، سوى لمن ولد عاش في كنف كل من اللغة والموسيقى في آن، كـ سوندهايم، الذي أحسن احتضان لحن بيرنشتاين كما لو كان لحنه هو. شرع في كتابة الكلام، كما لو كان يستشرف موسيقى يقوم بتأليفها بنفسه. يستوجب ذلك القدرة على الإبحار بين عالم الكلمات والمفردات وعالم الأنغام والانسجامات بنفس السهولة والتلقائية. البرزخ الذي يجمع بينهما يظل الإيقاع، والتقطيع الجُملي والامتدادات الصوتية، إضافة إلى النبرة من حيث الشدة والارتخاء. هنا، تمكن ملاحظة كيف استطاع كاتب الكلمات أن يجعل من اللحن، الموضوع سلفاً، مصدر إلهامٍ لا يُقيّد خياراته اللغوية، بل يوسّعها إلى أبعد المديات التعبيرية الممكنة.

إبحار إبداعي بين الأدب والموسيقى، ظل السمة الأبرز لتفوق سوندهايم وتفرّده. قد قال ذات مرة خلال مقابلة أجراها مع مؤرخة سيرة حياته إن «الكلمات لا بد لها أن تُجلَس على النغمات بغية أن تظل واضحة للمستمع؛ إذ إنه لن يتسنى للجمهور خلال العرض أن يسمع الكلام مرتين».

لذا، إن لم تقفز الكلمة مع كل قفزة يقوم بها اللحن، ولم ترتفع عند كل ارتفاعة له، وتنخفض إثر كل انخفاضة؛ سيؤدي ذلك إلى التباس يُصيب المتلقي. إلا أن إجلاس الكلمات بصورة مثالية على مجالس لحنية، لا يتأتى إلا لمن يُجيد صناعة أرائك لها، تتوسدها وتحتضنها كما لو كانت من صُلبها وماهيّتها... حتى تغدو اللغة موسيقى والموسيقى لغة.

عقدان غزيران

كان كل من عقدي السبعينيات والثمانينيات، من أكثر الفترات غزارةً وإنتاجاً في مسيرة الراحل ستيفن سوندهايم؛ إذ أخرج حينها سلسلة من الأعمال الأصلية والمتنوعة، بينها «كومباني» Company في عام 1970، و«فوليز» Follies في عام 1971، و«إيه ليتل نايت ميوزيك» A Little Night Music في 1973، و«سويني تود» Sweeny Todd في 1979، و«إنتو ذا وودز» Into the Woods في 1987.

أخبار

تحت عنوان **وهابيات**، تنظم دار الأوبرا المصرية، عند الثامنة من مساء اليوم، عرضاً على خشبة مسرح «معهد الموسيقى العربية». تؤدّي فرقة المعهد، في هذ العرض، عدداً من أغاني الفنان الراحل محمد عبد الوهاب.

أطلق نجم الروك الإنكليزي، **غوردن سومنر**، المعروف بـ ستينغ (1951)، ألبومه السادس عشر، «الجسر» THE BRIDGE. يضم الإصدار ثلاث عشرة أغنية. تتوزع فيه أنماط محددة من موسيقى (روك - بوب - الموجة الجديدة - ريغي - جاز).

ضمن سلسلة عروض جديدة، تحمل عنوان «موسيقى حاف»، يقدّم مترو المدينة، في بيروت، عند العاشرة من مساء الاثنين، عرضاً للفنان **زياد جعفر**؛ إذ يؤدي فيه مجموعةً من المقطوعات على آلة العود، إضافة إلى بعض الأغاني.

تفتتح أوركسترا قطر الفلهارمونية العام الجديد بحفل موسيقي يتضمن أعمالاً لـ **فرانس ليست**. يضم الحفل، الذي سيقام في 15 من الشهر المقبل، كونشرتو البيانو رقم 1، بالإضافة إلى Les Préludes.

تقيم فرقة **الأولة بلدي**، عند السابعة والنصف من مساء اليوم، عرضاً في «ساقية الصاوي»، تؤدّي فيه مجموعةً من أغاني الفنان الراحل، الشيخ إمام عيسى، وذلك بالتزامن مع ذكرى رحيل الشاعر أحمد فؤاد نجم.

Imagine Dragons
أغنية منفردة حماسية أفضل من ألبوم بارد

عمر بقبوق

لا تزال موسيقى الروك تتمتع بشعبية كبيرة حول العالم، ويفضلها ملايين من المستمعين على غيرها من الأنماط الموسيقية الأخرى. وإلى اليوم، لا تزال تسجل حضوراً ثابتاً في الإنتاجات الموسيقية العالمية، حتى بعد ثورة الموسيقى الإلكترونية، التي غيرت ملامح الأغاني السائدة في العقود الأخيرة. لكن أعداد الجماهير الكبيرة واستمرارية الإنتاج، هي مؤشرات ناقصة لا ترسم صورة كاملة للمشهد؛ فالحقيقة أن معظم جمهور الروك، يفضل اليوم الأغاني الكلاسيكية القديمة على كل الإنتاجات الجديدة، التي غالباً ما يطويها النسيان سريعاً، من دون أن تترك أثراً واضحاً، ليشهد العقد الأخير ولادة مئات فرق الروك حول العالم، التي فشلت بالعثور على مساحة خاصة بها في خارطة الموسيقى العالمية، وبالكاد نستطيع أن نتعرف على أسمائها عندما تُذكر.

هذه الدوامة التي جعلت أحلام هواة هذا النمط الموسيقي تتهاوى، لم يخرج منها سوى عدد قليل من الفرق الجديدة، يمكن أن تعد على أصابع اليد الواحدة، من بينها فرقة Imagine Dragons، التي بدأت عام 2008 بطريقة متواضعة فنياً، لكنها تمكنت بعد سنوات من ابتكار هويتها الفنية الخاصة، التي جعلتها تبرز وسط ازدحام التجارب المتشابهة التي حولت موسيقى الروك لحالة رومانسية مغرقة بالسوداوية، ووصلت إلى ذروة نجاحها عام 2017 مع ألبوم Evolve، الذي تضمن أغنية Believer. أغنية أعادت لموسيقى الروك شيئاً من روحها المتمردة الضائعة. خلال السنوات الأربع الماضية، ازداد عدد متابعي فرقة Imagine Dragons بشكل كبير، وارتفع سقف التوقعات معها. لكن هذه السنة، دخلت الفرقة في مرحلة الشك حول إذا ما كان لديها ما هو جديد لتقدمه، عندما أصدرت شهر سبتمبر/أيلول الماضي ألبوم Mercury - Act 1، الذي حصل -على غير العادة- على تقييمات منخفضة في المواقع العالمية المتخصصة بالموسيقى، ولم تتمكن أية أغنية فيه من جذب الجمهور، بسبب البرود الكبير الذي أصاب الفرقة بشكل مفاجئ. وصف بعضهم الإصدار بأنه مخيب للآمال، ولا سيما بعد المستوى الإبداعي العالي الذي وصلت إليه الفرقة بألبوميها السابق Origins. لا نرمي بهذا الكلام للقول إن الألبوم رديء ولا يستحق إهدار الوقت للاستماع إليه، بل على العكس من ذلك، فهو ألبوم متقن الصنع وأغانيه لا تفقد للحساسية الفنية، ولكن الواضح أن الجمهور لن يتقبل الاستماع لـ Imagine Dragons بالرتم المنخفض، بعد كل الحماسة التي بثتها أغانيهم السابقة.

> لم يستطع ألبوم الفرقة الجديد أن يصل إلى تطلعات الجمهور

اعادت اغنية مسلسل Arcane الفرقة إلى القمة (كيت غرين/Getty)

ورغم أن ألبوم Imagine Dragons الجديد، يفشل بالوصول إلى تطلعات الجمهور، إلا أن الفرقة تمكنت من المحافظة على وجودها في صدارة مشهد الروك من خلال الأغنية المنفردة التي أطلقتها بعده، ونقصد هنا أغنية Enemy، التي صدرت أخيراً بهدف الترويج لمسلسل Arcane. حققت الأغنية أرقاماً قياسية بالمشاهدات منذ إصدارها.

قد يكون لنجاح المسلسل دور بذلك، ولكن هناك عوامل أخرى مرتبطة بالأغنية بالتأكيد، التي تنجح بإعادة استثمار موسيقى الروك في عمل إيقاعي يعلق كالدودة بالرأس عند الاستماع إليه، فهي ربما الأغنية الوحيدة التي تزاحم أغنية الفرقة الأيقونية Believer على لعب هذا الدور. ناهيك عن مقطع الراب الذي يؤديه J.I.D، ليكسر الرتم ويعيد إنعاش الأغنية. كما أن مقطع السولو الذي أضيف على الأغنية في العرض الحي الذي قدم في حفل «إم تي في يوروب ميوزيك أواردز» حوّل الأغنية إلى تحفة متكاملة؛ لتكون بلا شك أفضل أغنية روك في العام كله، وواحدة من أفضل الأغاني التي قدمت حول العالم سنة 2021.